أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع .. وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكم .. فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .. وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله فى مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة فى الحياة تُعين على عبادة فهى عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدّى فرض الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يدٌ شاركتْ فيه منذ كان حبةً قمح تلقى فى الأرض إلى أنْ أصبحَ رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّى ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شىء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شىء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتى ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهى محلّ الاهتمام .. وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشترى قد يشترى وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدقّ شيء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أُمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب[1] الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التى يُؤْثِرونها على الله .. وهى الأصنام .. فالله سبحانه الذى خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله .. فالذى لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات فى معطياتها ، فَمَنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهى .. فكيف تكون العبادة إذن فى حق هذه الأصنام التى اتخذوها ؟! كيف تعبدونها وهى لم تأمركم بشىء ولم تنهكُمْ عن شىء ؟! .

---

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهرى : أشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال : فى جبالها . لأن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. (١٥) ﴾ [الملك] معناه : سهَّل لكم السلوك فيها . فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل . [لسان العرب ـ مادة : نكب] .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام - أو غيرها من معبوداتكم - لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتديّن غريزة فى النفس يلجأ إليها الإنسان فى وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذى يحب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان فى النفوس ويقتضى تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحَّك إنسان فى إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشىء أو ينهى عن شىء ! ما أسهل أن يُرضى فى نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاَّ تنسوا أن هذا الإله الذى ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه فى شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيِّدونهم ويُناصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا .. (٧٣) ﴾ [النحل]

نلاحظ فى هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء فى الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم فى آية أخرى :

﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى فى الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرِّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا ..(٧٣) ﴾ [النحل]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة لتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فانبت لنا نبات الأرض ..

ونُوضِّح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقلّ ما يُقَال له شىء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾ [النحل]

أى : لا يملكون لهم رِزْقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً .. وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُستأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾ [النحل]

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحبّون أنْ يجدوا فى القرآن مَأْخذاً يجادلون فى قوله تعالى[1] :

﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يروْن فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتُم .. ففى السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] .

فى الحاضر ، وفى المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

[الكافرون]

هذا قَطْع علاقات فى الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدرينا لعلّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل فى إعادة العلاقات فى المستقبل ، فالقضية - إذن - منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أى : لا يستطيعون الآن ، ولا فى المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النِّد والنظير .

وفى الآية نَهْى عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشىء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله .. إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثل فى محلّه ليُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ..﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : الصفة العليا فى كل شىء ، فإذا وجدتَ صفات مشتركةً بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شىء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه ليُوضّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثلاً لنوره كما نظنّ .. بل هو مثَل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[1] فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ[2] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]

نور السماوات والأرض ؛ لأنه بالنور تكون الهداية حسّية أو معنوية .. فالنور الحسّيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء .. هذا النور الحسيّ هو الذي يُبيّن لك الأشياء لتسير في الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضَوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطّمه أنت .. فالذي يهدي خُطَاك هو النور الحسيُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القِيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير في الحياة على بصيرة وهُدىً ، ويحميك من التخبّط في مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القِيَمي الذي أنزله الله لنا في كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) المشكاة : هي الكُوَّة ، الطاقة ، التي ليست بنافذة . [لسان العرب ـ مادة : شكا] .
(٢) الكوكب الدري : هو الكوكب الشديد البريق واللمعان . [القاموس القويم ١/٢٢٦] .

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا تقُلْ فى هذا المثل : إنه مَثَلٌ لنور الله .. بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون ، ولو تأمّلنا بقية الآية لأدركنا ذلك .

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

البعض يقولون : المشكاة هى المصباح .. لا .. المشكاة هى الكُوّة أو الطاقة المسدودة فى الجدار يعرفها أهل الريف فى بِنَاياتهم القديمة ، وهى تجويف غير نافذ فى الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل فى زجاجة ، وهى تحمى ضَوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفى نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافى من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكّر صَفْو الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التى ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارّ .. إذن : المصباح هنا فى غاية الصفاء والقوة ؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دُرىٌّ ، وكَوْنها كالكوكب الدرىّ يعنى أنها تُضِيء بنفسها .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة .. شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضيء ، ولو لم تمسسه نار ؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..(٣٥)﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى فى وصف هذا المصباح :

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع فى كُوّة صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة فى هذه الكُوّة ؟

إذن : فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه .. فنُوره لا يُدرَكُ ، وإنما هو مثَلٌ لتنويره للكون ، الذى هو كالكُوّة والطاقة فى هذا المثل .. فمعنى قوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٣٥)﴾ [النور]

أى : مُنوِّرهما ، فكما أنه لا يُعقل وجود نقطة مظلمة فى هذه الكُوّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسىّ الذى أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدَّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوى الذى يُنزل على عباد الله الصالحين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُوضاتٍ ربانية نتلقّاها فى بيوت الله :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ..(٣٧)﴾ [النور]

وهكذا نجمع بين النور الحسيّ والنور المعنوى ﷺ

ولذلك ، فأبو تمام[١] حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب فى الشجاعة والكرم والحِلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبى تمام ، وقال له : كيف تُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففى جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خَزَنته ألف واحد كحاتم .. ولكى يخرج أبو تمام من هذا المأزق ، ويُفلت من هذا الفخ الذى نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والبَاس[٢]
فَاللَّهُ قَدْ ضربَ الأقَلَّ لنُوره مثَلاً مِنَ المشْكَاة والنِّبْراس[٣]

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا نحن أن نضربَ له مثلاً لقلّة علْمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها فى نظرنا .. فيقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ؛ لأنه سبحانه لا يستحى أن يضرب بها المثل ؛ لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك ، قد تُعجِز أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردّ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء بهذا المثل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك ليُوضِّح لك قضية غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة .. مثل قضية الحاسد الذى يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البرىء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُوِيَتْ   أتَــاحَ لَهَــا لِسَــانَ حَسُــودِ
لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ[1] العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادى ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .. وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثل الشِّعرىّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة فى حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التى قد تكون مطمعاً .. فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء .. وفعلاً تتبعه الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مَرِّ التاريخ مَنِ اتهمُوا ظلماً ، وقيل فى حقهم ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

---

(١) العَرْف : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود : هو الذى يُتبخَّر به . والعود : خشبة كل شجرة ، دق أو غلظ . [لسان العرب ـ مادتا : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾ [النحل]

وهذه علّة النهي عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثل فى محلّه .

وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقِّى الأمثال ، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مَوْلى ، وصفه بأنه مملوك التصرّف ، وأنه لا يقدر على شىء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل ، كمَنْ تسمح له بالعمل في التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه .. فهذا عَبْد ، ومملوك ، ولا يقدر على شىء من السَّعْى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حَسناً أى :

حلالاً طيّباً .. ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سرّاً وجَهْراً .. وهذه منزلة عالية : رِزْق من الله وصفه بأنه حلال طيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه .. كُلٌّ حَسْب ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر :

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة]

هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا .. ويترك لنا السياق القرآنى الحكْم بينهما .. وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتى على وَفْق ما يريد .. ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون .. وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثَل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثَّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء .

وضرب المثَل الآخر للسيد الذى رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سِرّاً وجَهْراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿وَأَسْبَغَ[1] عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠)﴾ [لقمان]

(١) أسبغ الله النعمة : أتمها ووسّعها . [القاموس القويم ـ مادة : سبغ] . وشىء سابغ : كامل وافٍ . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب ـ مادة : سبغ] .

ليُبين لهم خطأهم في الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التي لا تعطيهم شيئاً .

ومن هنا تتضح الحكمة في أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه في هذا المثل ، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم ؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال .

ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ..(٧٥)﴾ [النحل]

فالحديث عن مُثنَّى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع ؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين .. مفرد شائع في عديد مملوكين ، وفي عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمِّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس في اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغةَ القرآن الكريم ، بل هي دقّة أداء ؛ لأن المتكلِّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك في قوله تعالى :

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ..(٩)﴾ [الحجرات]

بعضهم يرى في الآية مَأخذاً ، حيث تتحدث عن المثنى ، ثم بضمير الجمع في (اقْتَتَلُوا) ، ثم تعود للمثنى في (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء : لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً ،

وتعتبرونه اختلافاً فى الأسلوب هو منتهى الدقة فى التعبير القرآنى .. ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثنًى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل ستمسك كل طائفة سَيْفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيُمسك كُلُّ جندى منها سَيْفاً .. فالقتال هناك بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد فى الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلْح ، هل نصالح كل جندى من هذه على كل جندى من هذه ؟ لا .. بل الصُّلْح شأْنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة ، ففى الصُّلْح نعود للمثنى ، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البيانى ؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ..(٧٥) ﴾ [النحل]

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون فى الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عَمّا يُفكّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال فى أن أناساً منهم عندهم عِلْم ، ويرغبون فى الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ(١) لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ(٢) عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذى لا يتكلم .. ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربَّيناه فى بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح ؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شىء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

(١) البكم : أن يُولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بيِّن الخرس . [لسان العرب ـ مادة : بكم] .

(٢) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل] وهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل]

أى : عَالَة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ..(٧٦)﴾ [النحل]

إذن : لا خيرَ فيه ، ولا منفعةَ ألبتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الأول .

فماذا عن مقابله ؟

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٧٦)﴾ [النحل]

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الأمر بالعدل تقتضى أنه سمع منهجاً ، ووعتْهُ أذنه ، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الأبكم الذى لا يقدر على شىء .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾ [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مَثَلٌ آخر للأصنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهى لا تقدر على شىء لا لَهَا ولا لعابديها .. بل هى عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وينصبونها ، ويُصلِحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً ؟!

أو نقول : إن هذا مثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه فى المثل السابق قال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

وفى مقابله قال :

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : ﴿رَّجُلَيْنِ.. (٧٦)﴾ [النحل]

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذى يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذى يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا أن العالم منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفيّ عنّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرّم على سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : لله تعالى في كونه ظاهر وغَيْب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها .. حتى في ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب نُسمّيه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنّي أشياء ، وغيري غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذي لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو في الحقيقة نوع من الكمال في النفس البشرية ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غَيْبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيِّرت في هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبي ؛ ولذلك يقولون : « المغطى مليح » .

فسَتْر الغيب كمال في الكون ؛ لأنه يُرَبِّي ويُثْرِي الفائدة فيه .. كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأنْ تُزهِّدك فى كل حسناته وتُكرِّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشىء ، فى حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعتَ الانتفاع بحسناته .. وهكذا يُنمى الغيبُ الفائدةَ فى الكون .

وفى بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يابْنَ آدمَ سترْتُ عنك وسترْتُ منك ، فإنْ شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سبالَ السِّتر إلى يوم القيامة»[1]

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار السِّتْر .. فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرفَ غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيْب وضع الله فى كونه مقدمات تُوصِّل إليه وأسباباً لئلاَّ يكونَ غَيْباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التى يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنّا فى وقت ، ثم صارت مُشَاهدة فى وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾

[الحجر]

(١) لم أقف على هذا الأثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذى عن الحسن مرسلاً والعقيلى عنه عن أنس : « قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد مسلم فى الدنيا ثم أفضحه إذ سترته ، ولا أزال أغفر لعبدى ما استغفرنى » وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤٠٥٠/٤) وضعفه .

فالذى كان غَيْباً فى الماضى أصبح ظاهراً مُشاهداً اليوم ؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مُقدِّمات يصل إليها مَنْ يبحث فى الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ فى المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثتَ فى كُلِّ المخترعات والمكتشفات لوجدتَ ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بحلِّ تمرين هندسيٍّ .. ومعنى حَلِّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ، ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة فى الكون هى المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصَّل إلى غيبيَّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا أذنَ الله لهم تكشفتْ لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيْب واكتشافه ؛ فإن صادف بَحْثاً من البشر التقيا ، وإلاَّ أظهره الله لنَا دون بَحْث ودون سَعْى منّا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغَيْب المطلق ، وهو غَيْب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدّمات وأسباب تُوصّل إليه ، كما فى النوع الأول .. هذا الغَيْب ، قال تعالى فى شأنه :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ..(٢٧)﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنا الرسول غَيْباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب .. لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .. إذن : هذا غَيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل .. ولما سُئِل الرسول ﷺ عن الساعة ، قال : « ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل »[(1)] .

وفى الإسراء والمعراج يحدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيَّره فيه فلا يعطيه إلا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

لأهل الاستعداد السلوكى الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطانى وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أى رويْته وقُلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطع حلقومى هذا ، فهذا من الأسرار التى يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٧)﴾ [النحل]

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أى قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٧٧)﴾ [النحل]

أى : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أى : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ..(٧٧)﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد ؛ لأنه الغيب الذى استأثر الله به ..

ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو .. فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتىَ بهذا الغَيْب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌ بها نقول : رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح .. فرأى مثلاً أى بجُمْع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشيء المرئى .. فإنْ أردتَ أنْ ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هى لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان فى ذاتها ولكنها تقصر عند الرائى .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فتراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذى مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً فى زمن أطول ،

فى حين أن الزمن فى السرعة يتجمع تجمّعاً لا تدركه أنت بأىّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهى جزئيات حركة فى جزئيات زمان ، فلَمْح البصر الذى هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ فى سَرْد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : ما أمْر الساعة ؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلْق متعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أنْ تتصوَّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هى كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أمْر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا فى فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلّم عن أهل القبور ، قال :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

في حيـن أننا نرى أنهم غابوا كـثيـراً في قبورهـم .. إذن : كيف يُقَـاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتـتبُّـعك للأحداث ، فـحينمـا لا يُوجد حَـدَث لا يُوجَد زمن .. وهذا ما نراه في حـال النائم الذى لا يستطيع تحديد الزمن الذى نامه إلا على غالب ما يكون في البشر .

ولذلك ، في قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مـائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١١٣)﴾ [المؤمنون]

فـهذا هــو الغالب في عُـرْف الناس ؛ ذلك لأنهـم استـيـقظوا فلم يجـدوا شـيئـاً حـولهم يدل على زمـن طويل .. الحـال كـمـا هـو لم يتغيَّـر فيهم شيء .. فلو اسـتيقظوا فوجـدوا أنفسهم شيـوخاً بعد أن كانوا فـتية لَعلموا بمـرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعـدم الحدث زمن مَلْغيّ .

أو نقول : إن أَمْـر الساعة في أن الحق سـبحانه يجـعلها جامـعة للناس إلا كلمْح البـصر ، فكلّ ما يحـدث فيهـا لا تقيـسه بزمن ، لأن الذى يُقاسُ بالزمن إنما هي الأحداث الناشـئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشيء مـن هنا إلى هنا فـسوف يحـتـاج منك وقتـاً ومـجهـوداً ، أما لو كلفتَ طفـلاً بنقل هذا الشيء فسـوف يأخذ وقتـاً أكثر ويحتـاج مجهـوداً أكثر .. إذن : فـالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج[1] قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة ، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم فى الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس .. ومحمد ﷺ لم يقل : أسريْتُ ، بل قال : أُسْرِى بى ، الذى أَسْرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لِنُقرِّب لكم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾ [النحل]

أى : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شىء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هى القدرة العُلْيا التى لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٣٦٣/٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب ، زعم . قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ » الحديث بطوله .